# "محلٌّ علي القاطول"

## ثورةُ مَرثيَّة

يُسلَبُ الشاعرُ ليُتحفَ القارئ، ويوعكُ الأديبُ وعكًا شديدًا لينشط الأدب من عقاله، حيلةُ القدَر في الناس فما الحيلة؟

كان "البحتريُّ" يوم مصرعه في "المتوكِّل" مستراثًا يتعجَّله المشيب فلا يستفزُّه ولا يُبطلُ جمرتَه، يُقسم ألن يرحل إليه أو ينزل به، مستهتَرًا كما لا يُستهتَرُ شاعر مملكةٍ ونديمُ خلافة؛ فعاجله المشيبُ في منزل الشباب!

لا يتحركُ اللسان كما يتحرك إذا قرَعَه الزمان بما يقطع القول ويوجب الصموت، وماذا يُتوقَّعُ من أديبٍ تامِّ الأداة كاملها إذا كافحته مصيبةٌ غيرُ مستترةٍ ولا متهيِّبة تقول له: كيف تقول؟

لم يكن "ثعلبُ" محقًّا في دعواه، ولا كانت رائعة "البحتري" ذهولًا حمته المصائب عن تخوف العواقب،[1] إنما كانت جوابًا تامًّا واجبًا ناجزًا عن سؤالٍ لا يحتمل التقصير ولا

[1] عبارة "أبي العباس ثعلب" في زهر الآداب، الحصري القيرواني (263/1)، ط.المكتبة العصرية-بيروت، والمصيبة المقصودة ما وقع- عام247 للهجرة- من قتل الخليفة المتوكل العباسي في قصره المطِل علي "القاطول"- وهو متفرع من "دجلة"- في مؤامرة نُسِبت لابنه "المنتصِر"، سخطًا لميل أبيه "للمعتزِّ"، وقد قيل إن "البحتريّ" حضر الواقعة متخفيًا.

الاحتياط ولا التحرُّز. لقد توسّل الرجل بالبيان علي أرجي وجهٍ تبلِّغُه الوسيلة، فعرف كيف يخلق من المرثية ثورةً مستبدَّةً، يحكم بها فوق الموت والمكر والخيانة.

خلا القصر فروَّعَه وأذهب نفسَه مذاهب، فأنشأ يفزِّعُ ويروِّعُ ويُذهبُ الأنفس:

**مَحلٌّ علي القاطولِ أخلَقَ داثِرُه!**

وهو افتتاحٌ لا يُسمَع حتي يُجاب: أيُّ محلٍ وأيُّ هلاكٍ وأيُّ سببٍ وأيُّ دهر؟ هكذا مأخَذ البيان الراشد من المخاطَب، دونَه الصبوة والاحتلام والمراهَقة؛ وهنا يُنكرون إخلاق الداثر وكأنه بِلي الفاني، وأي بليً بعد الفناء؟ وكأن "ذا الرمَّة" لم يقل:

**أشاقتكَ أخلاقُ الرسومِ الدواثرِ؟**[2]

فيجعل من الرسم الداثر- الدارس- مُخلِقًا وغير مُخلق، ولو شاء لأوجبَ قافيةً مضمومةً وجعل كلَّ مُخلقٍ داثرًا علي القطع الناسخ للاحتمال؛ وكأن "البحتريّ" نفسه لم يقل بعدُ:

10-كأن لم تَبِت فيه الخلافةُ طلقةً بشاشتُها، والمُلكُ يُشرِقُ زاهرُه

وكان أيسرَ عليه أن يجعل الخلافة طلقةً والملك مشرقًا، من أن يَفصل ببشاشةٍ وإزهارٍ ثم يعلِّق وصفه بهما، لكنها طريقة الكبار: فليس ثَمَّ داثرٌ مُخلقٌ وداثر غير مخلق، ولا زاهر مشرقٌ و زاهر غير مشرق، ولا بشاشة طلقةٌ وأخري غير طلقة، لكن المبالغة

[2] **الديوان، ص:1665، ط1: مؤسسة الإيمان/بيروت**

في التأكيد تفرض عليه أن يفرض وجود متفاضلَين ثم يختار آكدهما وأنسبهما وأحكمهما عُقدةً ونسجًا وبراعة.

ثمَّ لا تعجزه أفانينُ الوله والتحسر بعد ذلك، فيشكو الصَّبا- حينًا- شكوي الرقيقِ الذي لا يُشتكَي إلا إيغالًا في وصف العجز والحيرة والخذلان:

2-كأن الصَّبا تُوفِي نذورًا إذا انبرت تراوحُه أذيالها وتباكره

وإنما يجعلون الثأر والعسف والنكال نذرًا إذا أرادوا إحراج جانٍ أو تأنيبَه أو تثبيت تهمته، وما للصَّبا والجناية؟ إنما ذلك تحسُّر عاجزٍ هدَّم الدهرُ داره فأمسي يعاتب الريح علي محو ما تهدَّمَ وتغبَّر.

ويلوذ بالتكرار- حينًا آخر- فيوقعه علي وجهه المستملَح غير المنكر المرذول، واقرأ:

4-تغيَّرَ حُسنُ "الجعفريّ" وأُنسُه وقُوِّضَ بادي "الجعفَري" وحاضرُه

وكيف أعاد اسم القصر كما تستعيد ثاكلةٌ اسمَ وحيدها كلما ندبَته، وانظر كيف تذهل عن التكرار حين ينسخ شطرًا من شطرٍ فيقول:

7-ولم أنسَ وحشَ القصرِ إذ ريعَ سربُه وإذ ذُعِرَت أطلاؤه وجآذرُه

ثم هو يعتدي علي الشيب في عنفوانه بحكمةٍ تقضي أنه وافاه مستعدًّا مترجِّلًا، غيرَ وجِلٍ منه ولا مقصِّرٍ عنه، فيجمع محنةَ العشرين بيتًا في بيتٍ يشدُّ ضلال الباغي إلي فناء الملك بعقال القدر المقدَّر:

20-حلومٌ أضلّتها الأماني، ومدَّةٌ    تناهت، وحتفٌ أوشكته مقادرُه

ولا يبخل علي "المنتصِر" ببيتين هما أثقل في ميزان الدهر من الجريمة التي نسبوها إليه، وأحسم لثورة الجدل التي أثارتها الخيانة في صدر "البحتريّ" نفسه:

26-وهل أرتجِي أن يطلب الدم واترٌ    يدَ الدهرِ، والموتور بالدم واترُه؟

27-أكان ولِيُّ العهد أضمرَ غدرةً    فمن عجَبٍ أن وُلِّي العهدَ غادرُه!

ثم إن "البحتري" بين ذلك كلِّه يجعل "المتوكل" آمرًا للدهر وناهيًا بين يدي موتٍ أحمر الأظافر، ويخوِّفُ من أناة "المعتزّ" وحِلمه، ويتهدد ويتوعد بوزراء الخليفة القتيل:

18-فلو عاش ميتٌ أو تقرَّبَ نازحٌ    لدارت من المكروه ثَمَّ دوائرُه!

فيُحكمُ مرثيةً لا يجهل بعدها الأديب أيَّ سماءِ مجدٍ يمكن أن يبلغ الأدب، وأيَّ منزلةٍ بين منازل الرأي والحُكم والتعقيب يمكن أن ينزل، ويري، ويَحكمَ، ويُعقِّب.    .